البحرين في الق

طبقاً للمصادر العثمانية والبرتغالية

بقلم : الدكتور صالح أوزبران - اسطنبول

"يجدر لأسلافنا تقديرنا لما بذلوه من مجهود للحفاظ على أرشيفاتنا القيمة . لو اعتمدنا على مؤرخينا وعلى مؤلفاتهم فقط لما استطعنا أن نقرأ أو نكتب عن أي موضوع بصورة صحيحة"[١] .

أعرب صفوت بك المؤرخ العثماني البحري عن هذا الرأي في ١٩١٠م حول الأرشيفات العثمانية وكتب التاريخ المتعلقة بفترة الغزو العثماني للبحرين في ١٥٥٩م وفي الواقع يثبت المؤرخون العثمانيون للقرنِ السادس عشر من العجب بأن مؤلفاتهم أقل إفادة مما كان متوقعاً منهم . إن أرشيفات اسطنبول بالمقارنة، تتضمن معلومات أكثر لأن الحكام العثمانيين (بيلربك) في البصرة والاحساء قاموا بأخبار الحكومة المركزية عن شئون الخليج بانتظام، إما عن البحرين نفسها أو عن البرتغاليين الذين استقروا في هرمز .



هذا وإنه لأسهل لمن يتابع التطورات في الخليج وخاصة في البحرين لأن المؤرخين البرتغاليين كتبوا بالتفصيل في القرن السادس عشر كما أخبر حكام هرمز وجوا ملك البرتغال عن سير الأحداث من وجهة نظرهم .

كان جو دي باروس من كبار المؤرخين البرتغاليين في القرن السادس عشر وعلى الرغم من أنه لم يزر الهند قط إلا أن المراسلات والوثائق الرسمية كانت في متناول يده في "دار الهند) . كتب باروس في كتابه "آسيا" بالتفصيل سرداً للنفوذ البرتغالي الكثيف في كل من البحرين والاحساء في ١٥٢١م . ضم مقرن بن زامل حفيد أجود جزيرة البحرين إلى أقاليمه آنذاك ورفض دفع الخراج إلى سلطات هرمز خلاف ما كان يتوقع منه، وحسب باروس فإنه تعرض للسفن التي كانت تمر بين البصرة وهرمز واكتسب لهذا الغرض بعض السفن ذات مجاديف صنعها له الأتراك[٢] فأرسل ديوجو لوبيز دي سكيرا، الحاكم البرتغالي آنذاك للهند، ابن عمه أنطونيو كوريا إلى البحرين ومعه أسطول بحري وكان من بين قوات مقرن ضد البرتغاليين ٣٠٠ فارس عربي و ٤٠٠ رامي للسهام من الفرس و٢٠ متخصصاً عثمانياً في الأسلحة النارية وقد استخدموا ليس للقتال فحسب بل لتدريب السكان المحليين أيضاً على استخدام الأسلحة النارية[٣] . لم تكن هذه القوة كافية للدفاع عن الجزيرة .

قتل مقرن في القتال وأعلن حميد ابن أخته بأن سكان البحرين والقطيف وهو نفسه مطيعون لملك البرتغال[٤] . وهكذا أصبحت البحرين تابعة بصفة رسمية إلى سيطرة البرتغاليين لمدة قرن تقريباً واعتمد البرتغاليون على حكام هرمز الذين عينوا محافظين محليين من قبلهم .

هنا يدلي باروس بوصف جغرافي للبحرين والخليج تصريحاً لما حدث في الماضي وتطلعاً لما يحدث في المستقبل[٥] .

لم يزر باروس منطقة الخليج قط واستند على علماء الجغرافية. وكان منهم اثنان من العرب وثلاثة من الفرس[٦] فيقول : "بسبب وضعها الجغرافي وأرضها المنخفضة تكثر بها

النخيل وطقسها حار ورطب وتربتها خصبة ويكثر فيها الماء الجوفي تحت السطح لكنه ملح ويسبب الأمراض خاصة بين شهري سبتمبر وفبراير . وفيها تكثر التمور المتنوعة مما يصدر إلى أماكن مختلفة . إضافة إلى ذلك تزرع فيها الفواكه المختلفة مثل أسبانيا كالرمان والتين بصفة خاصة كما توجد فيها حدائق الفواكه بكثرة . ويسكن الجزيرة المسلمون العرب . إن البحرين هي مدينة واقعة في الجزيرة وتعرف الجزيرة بأسرها باسم المدينة . . ومبانيها رائعة مبنية بالحجر والكلس ولها طوابق وأسطح وشرفات ونوافذ . وأهميتها الرئيسية تتجلى في صيد السمك . وتعتبر لآلئهـا من أكثر الأنواع جودة في المنطقة الشرقية[٧] .

تقع الجزيرة بين الاحساء وقطر على الطريق البحري بين هرمز والبصرة ومن هذه الناحية لفتت أنظار جيرانها الأقوياء .

وقد بدأ اهتمام تركيا بالبحرين في ١٥٤٦م فور فتح البصرة . بعثت تركيا في العام التالي بسفير لها إلى هرمز لإقامة الأمن والسلام مستهدفاً الانفتاح التجاري مع الخليج . لقد ورد في خطاب بعث به مانويل دي ليما حاكم هرمز آنذاك إلى الحاكم البرتغالي في الهند في ٢٧ سبتمبر ١٥٤٧م ما يلي : "يريد الأتراك الاقتراب من البحرين إما بالأساليب السلمية وإما بالقوة . إذا فازوا في خطتهم سيصلون إلى مقربة هرمز يلفت صيد اللؤلؤ أنظارهم"[٨] .

احتل العثمانيون القطيف في ١٥٥٠م وهي مدينة ساحلية هامة مما جعل موقف البحرين خطيراً أكثر[٩] .

عندما غادر بيري بك القائد البحري العثماني ميناء السويس بهدف محاصرة هرمز في ١٥٥٢م، تلقى الأوامر من السلطان بأنه يجب على الأسطول العثماني أن يسيطر على البحرين إن أمكن بالإضافة إلى احتلال هرمز[١٠] . إلا أنه لم يستطع تنفيذ هذا الأمر .

بعد مرور سنتين من مهمة بيري بك، حاول قائد بحري عثماني آخر جلب الأسطول العثماني إلى السويس من البصرة وتلقى سيدي علي وهو في طريقه إلى السويس خبراً من حاكم البحرين مراد شاه قائلاً بأن مضيق هرمز مفتوح وليس هناك ما يمنعه من

المرور به . أورد سيدي علي وهو عالم الجغرافية العثماني الشهير، وصفاً موجزاً للبحرين في كتابه "مرآة الممالك" كما يلي :

". . . وسافرنا إلى البحرين ولاقينا حاكمه رئيس مراد إنه أخبرنا بأنه ليس هناك أياً من المتمردين في البحر، وشاهدنا عمليات غريبة في البحرين . رأينا الغواصين يغوصون إلى عمق حوالي ٥٠ قدماً ويجلبون معهم أكياس الماء العذب . هذا الماء لذيذ الطعم وبارد ويستخدم للشرب . أرسل الحاكم لنا كميةً من هذا الماء ولا يشرب رئيس مراد إلا هذا الماء . وهذا هو سبب تسمية البحرين"(١١) .

تعرضت البحرين في عام ١٥٥٩م للاقتحام من قبل كل من العثمانيين والبرتغاليين وتوجد تفاصيله في المصادر التركية والبرتغالية على السواء . من ناحية العثمانيين توجد الأوامر السلطانية التي صدرت بشأن هذه العمليات كما يوجد تقرير لضابط تركي شارك في هذا الغزو(١٢) . من ناحية البرتغاليين يوجد لدينا كتاب باسم "ديكاداس" لـ "ديوجو دي كوتو" . إن تاريخ كوتو في الحقيقة مواصلة لتاريخ باروس . سافر كوتو إلى الهند في ١٥٥٩م ومكث هناك لأكثر من ٥٠ سنة حيث خدم الجيش ثم عين أميناً للأرشيفات في جوا . وهكذا اكتسب بعض المعلومات من الضباط والعساكر البرتغاليين . لذلك تحمل كتابات كوتو أهمية بالغةً ليس بخصوص مهمة ١٥٥٩م فقط بل بشأن الأحداث التي تلت عام ١٥٣٨م أيضاً(١٣) .

تولى مصطفى باشا المحافظ العثماني لولاية الاحساء مهمة الغزوة في ١٥٥٩م وطبقاً لما يقوله كوتو إنه أعد للغزو بالتعاون مع محافظ البصرة(١٤) تذكر الوثيقة المذكورة بأنه قد سبق إرسال ٢٠٠ فارس و ٤٠٠ جندي مع أسلحة نارية إمداداً من البصرة إلى الاحساء . توجد رسالة مؤرخة ٢٨ ذي الحجة ٩٦٦هـ/أول أكتوبر ١٥٥٩م أرسلت إلى حاكم البحرين من السلطان سليمان قائلة بأن الغزوة انطلقت دون إذن مسبق من السلطان(١٥) .

إننا نعرف حق المعرفة اليوم بأن الحكومة العثمانية كانت حريصة أشد الحرص على الخليج والبحرين . إن كان الغزو ناجحاً لكان السلطان يرحب به . أدت المحاولة من سوء الحظ إلى كارثة . اضطر العثمانيون لمقاومة ظروف الطقس القاسية إضافة إلى

محاربة البرتغاليين والسكان المحليين . وعلى الرغم من أن البرتغاليين مارسوا نفوذاً بالغاً في الجزيرة إلا أنهم واجهوا معاناة بليغة بسبب مقاومة العثمانيين أو بسبب الظروف الجغرافية في البحرين[١٦] . يأتي تفصيلها في رسالة كتبها الأخ لوئي فروا من جوا إلى لشبونة في أول ديسمبر ١٥٦٠م . تقول الرسالة : "جاء الأب بيري برودو هذا العام من هرمز . . وقام أسطول برتغالي ضخم بهجوم ضد البحرين حيث كان قد لجأ إليها الأتراك . . ومرض الجيش البرتغالي والجيش العثماني على حد سواء بسبب الطقس . . على الرغم من أن الجزيرة تتمتع بهواء بارد وأرض خصبة وتراب جميل إلا أنها تتعرض لرداءة الطقس في شهرين من السـنة وينـدر أن ينجـو من أثـره السيئ أي أجنبي كان ما كان . ."[١٧] .

لم تجذب البحرين أنظار العثمانيين فيما بعد حتى عام ١٥٧٣م . حاول العثمانيون حتى ذلك الحين إقامة سلام انطلاقا من قناعتهم بأن السلام يستعيد إنعاش البصرة عن طريق التجارة . لم يتمكن البرتغاليون من النزول على شواطئ البصرة والاحساء . تفيد الأوامر السلطانية بأن البحرين أصبحت موضع اهتمام العثمانيين في عام ١٥٧٣م حين صدر أمر سلطاني إلى حاكم شيراز في ١٢ سبتمبر من ذلك العام الموافق ١٥ جمادى الأولى ٩٨١هـ وجاء فيه بأن البرتغاليين أبحروا إلى البحرين وألقوا القبض على بعض السكان كما حجزوا على سفينة أو سفينتين"[١٨] . ويأتي أمر سلطاني آخر مرسل من اسطنبول إلى حاكم البصرة بنفس التاريخ بالنص التالي :

"أمر صادر إلى حاكم البصرة :

أرسل "علي" حاكم بغداد رسالة لنا تخبرنا عن وصول ١٤ سفينة متنوعة للكفار إلى البحرين وعن حجزها لسفينة أو سفينتين وأسر سفير حاكم لار في البحر . يسبب هؤلاء الكفار إزعاجاً مستمراً في البحر ويخبرنا وكلاؤنا عن احتمـال تخريب منشآتنا في البحرين . لقد علمنا من رسالتك بأنك أرسلت ١٠ سفن مجهزة بالمجاديف والأسلحة واللوازم الأخرى .

صورة لأمر سلطاني بعث به من اسطمبول إلى حاكم البصرة في ١٢ سبتمبر ١٥٧٣م

أرشيفات اسطمبول، دفاتر مهمة – ٢٢ – ص٣٢٢

أنت قدمت التماساً لنا بأنه يجب طرد العدو من موقعه فأصدرت الأوامر إلى "علي" ليقوم به ولقد اتخذت خطوات أخرى لطرد الكفار من البحرين . وبصفتك حاكماً على البصرة عليك مراقبة شئون الاحساء كما يجب على "علي" أن يراقب شئون البصرة **وعلى حاكم شيراز أن يشرف على شئون البلاد** . أصدرت الأوامر أيضاً بأنه إذا حصل أي ضرر لأقاليمنا المحروسة من قبل الكفار فترسل السفن من البصرة مع المعدات والذخائر كما أمرت بتجهيزك بالمساعدة في الجنود والتعزيزات الأخرى إذا دعت الحاجة عن طريق البر . آمرك بهذا أن تكون حذراً بشأن الكفار الذين جاءوا إلى البحرين . إذا ألحق العدو بك أي ضرر، عليك أن تفيد "علي" بذلك واطلب منه السفن أو الجنود حسب الحاجة . وعليك أن تنظم الدفاعات والتحصينات والإمدادات والذخائر حيثما كان ضرورياً في مدافعة أقاليمنا"(١٩) .

تبدي هاتان الوثيقتان لعام ١٥٧٣م بأن الحكومة العثمانية اعتبرت فكرة النزول على الأقاليم بالقرب من البحرين كالقطيف والاحساء فكرة عملية . لذلك، كان من الضروري لولايتي بغداد والبصرة أن تراقبا أنشطة البرتغاليين في الخليج .

كانت البحرين موضع انتباه العثمانيين . كانت الحاجة الأولى هي حشد الجنود والمعدات والعتاد الحربي اللازم في الاحساء بالقرب من البحرين . تتضمن إحدى الوثائق الأمر السلطاني المؤرخ ٢٥ مايو ١٥٧٣م جاء فيها استفسار من حاكم الاحساء عما إذا كان غزو البحرين أمراً قابلاً للتنفيذ والاستعدادات المطلوبة لهذا الغرض والوقت المناسب للاقتحام(٢٠) . كما استفسر من حاكم ديار بكر(٢١) إذا كان باستطاعته تزويد حاكم الاحساء باللوازم التي اعتبرها حتمية للغزو مثل ٣٠٠ وحدة قنطر من الحديد والذخائر والمؤن و١٥ وحدة للمدفعية(٢٢) .

استمر اهتمام العثمانيين بالبحرين في عام ١٥٧٥م . جاء في أمر سلطاني بأن بعض العناصر في الجزيرة كانوا من مؤيدي العثمانيين لدرجة استعدادهم لتسليم القلعة لهم عند الغزو . هناك أمر سلطاني آخر(٢٣) موجه إلى حاكم بغداد بتاريخ ٢٠ مايو ١٥٧٥م الموافق

٩ صفر ٩٨٣هـ . تذكر هذه الوثيقة بأن حاكم الاحساء أخبر السلطان في اسطنبول قائلاً بأن السفن الموجودة في البصرة وعدد الجنود المتوفر فيها تكفي لاقتحام الجزيرة . رغم ذلك استفسرت السلطات العثمانية في اسطنبول من حاكم بغداد عن العدد المطلوب من حيث الجنود والسفن والمدافع لغزو البحرين ومتطلبات الذخائر والتموين . إن أمراً قد أرسل من اسطنبول في يونيو ١٥٧٥ إلى حاكم البصرة بما يتضمن بعض التفاصيل للاستعدادات العثمانية لغزو الجزيرة . تعكس هذه الوثيقة الأوضاع بالنسبة إلى تواجد المدافع والذخائر في كل من الاحساء والبصرة[٢٤] ولم تكن في الاحساء مدافع كبيرة لفرض الحصار . كان مدفعان كبيران في البصرة ومدفع آخر في "رمنة" في ولاية البصرة و٣ مدافع أخرى أي ٦ مدافع من حيث الكل . امتلكت البصرة ١٤ سفينة والتموينات وكميات من الحديد والفئوس والمعاول والبارود والبنادق .

لم تفلح هذه الاستعدادات إطلاقاً . وصل أمر من السلطة المركزية إلى حاكم البصرة في ١٥٧٦م (٩٨٤هـ) بأنه لا يقوم بأي هجوم في ذلك الوقت وعليه أن يراقب ساحل الاحساء فقط بواسطة سفينتين من عنده[٢٥] .

حدثت أحداث هامة في نفس الوقت في البحرين ويتضمن خطاب أرسل من اسطنبول إلى حاكم الاحساء في ٣ فبراير ١٥٧٧م (٦ من ذي الحجة ٩٨٥هـ) المعلومات التالية : "مات محمود شاه حاكم البحرين وحل وزير شاه محله وهو ابنه . نزل نور الدين على البحرين وهو أحد وزراء هرمز وقبض على الحاكم الجديد . صدرت الأوامر إلى حاكم الاحساء ليسلم سفينتين مجهزتين بالذخائر والمعدات إلى حاكم البصرة"[٢٦] .

يبدو بأن حكومة اسطنبول تخلت عن جميع المشاريع لغزو البحرين في بداية عام ١٥٧٧م . رغم ذلك ورد اسم البحرين مراراً في المراسلات فيما بعد . وتتركز المراسلات على النشاطات الضارة للسكان العرب المحليين على شواطئ الاحساء[٢٧] .

احتلت البحرين مكاناً أقل أهمية بعد حرب طويلة وغالية دارت مع الصفويين . أُذِن حاكم الاحساء في ١٥٩١م بغزو الجزيرة ولكن دون أي دعم مادي مساعدةً لتنفيذ المشروع .

على كل حال لم يسكت البرتغاليون في هذه الأثناء وبعث الملك البرتغالي برسالة إلى الحاكم العام في ١٥٨٩م حذره فيها من هجوم عثماني محتمل على الجزيرة وأشاد بالخطوات التي اتخذها بهذا الشأن[٢٨] .

د. صالح أوزبران – اسطنبول

الهوامش

١ — صفوت بك، "بحرين دي بيرواكا" في تاريخ عثماني (اسطنبول، ١٣٢٦هـ/١٩١٠م)، ص١١٣٩ .

٢ — جوو ودي باروس، دا آسيا، لشبوآ ١٧٧٧-١٧٧٨ ديكاد ١١١، ليفرو في ١، كابيتولـــو، ٢، ص٢٧ . تشير كلمة "الأتراك" هنا إلى العثمانيين الذين عاشوا في الأقاليم التي كانت تحت حكم السلطان العثماني . يذكر باروس أيضاً بأن مقرن سافر إلى مكة ليجيء ببعض الفنيين الأتراك المتخصصين في صنع المراكب الصغيرة المسيرة بالمجداف مستهدفاً فرض سيطرة على مضيق الخليج .

٣ — باروس، دك ٣، ليف ٦، كاب ٣، ص٣٣ .

٤ — للتفاصيل أنظر : باروس، دك ٣، ليف ٦، كاب ٥ ؛ جاسبار كوريا، ليندااس دا إنديا، لشبوا ١٨٥٨-١٨٦١م، مجلد ٢، ص٦٤٨-٦٤٩ .

٥ — باروس، دك ٣، ليف ٦، كاب ٥، ص٣٣ .

٦ — نفس المصدر ص٣٩ .

٧ — نفس المصدر، قد جاء ذكر البحرين من ضمن أسفار أنطونيو تنريرو الذي سافر من هرمز إلى البرتغال عن طريق البر في ١٥٢٣م، أنظر كوئمبرا ١٩٢٨م، ص١٠٨-١٠٩ .

٨ — كارتاس دا أورمز، جوو دي كاسترو، ١٢١ ب .

٩ — بالنسبة إلى التطورات في الخليج بعد احتلال العثمانيين للبصرة أنظر المقال : "الأتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج، ١٥٣٤-١٥٨١" الذي نشر في مجلة التاريخ الآسيوي ١/٦ (ويس بادن ١٩٧٢)، ص٥٠-٥٦ للدكتور أوزبران ؛ و "تاريخ الستي تيوسو درجسي ٩ (اسطنبول ١٩٧٨)، ص٢٤١-٢٩٢ ؛ ومنداقيل "الولاية العثمانية (الاحساء) في القرن السادس عشر والسابع عشر"، في مجلة "الجمعية الأمريكية الشرقية" ٣/٩٠، ١٩٧٠، ص٤٨٦-٥١٣، وخاصة ص٤٨٨ .

١٠ — بليتين ١٣٤/٣٤ (أنقرة ١٩٧٠م)، ص٢٤٩ .

١١ — سيدي ريس "مرآة الممالك" اسطنبول، ١٣١٣هـ/١٨٩٥م، ص١٨ .

١٢ — تاريخ درجيسي ٢٢/١٧ (اسطنبول ١٩٦٧م) ص١-١٦ ؛ أنظر أيضاً : د. أوزبران، "البحرين في ١٥٥٩م : قصة الصراع التركي البرتغالي في الخليج" في "مجلة الدراسات العثمانية" ٣ (اسطنبول ١٩٨٢)، ص٩١-١٠٤ .

١٣ – سي.آر. بوكسر، "٣ مؤرخون/ آسيا البرتغالية" (باروس،كوتو وبوكارو) .

١٤ – دك ٧، ليف ٧، كاب ٧، ص١١٠ .

١٥ – دفتر الأمور المهمة، ١١١ ص١٤٠، يقول السلطان في الرسالة المذكورة بأنه منح محافظ البحرين بمنصب الحاكم "سنجك بك" ؛ أنظر أيضاً صفوت بك "بحرين دي بيرواكا"، ص١١٤٠-١١٤١ .

١٦ – لتفاصيل القصة أنظر : كوتو، دك٧، ليف ٧، كابس ٧-٩ ؛ و "وصف عن البحرين" كاب ٩، ص١٥٢-١٥٤ .

١٧ – " دوكومنتوس سوبر برتغالي موزنبيق" مجلد ٧، ص٥٤٦ .

١٨ – دفاتر مهمة ٢٢، ص٣١٧ .

١٩ – نفس المصدر، ص٣٢٢ .

٢٠ – نفس المصدر، ص٤٣ .

طبقاً لقول قاضي الاحساء كانت البحرين تشمل أكثر من ٣٠٠ قرية .

٢١ – دفاتر مهمة، ٢٧، ص٨١ ؛ ص. أوزبران، "الأتراك العثمانيون والبرتغاليون"، ص٨٦-٨٧ .

٢٢ – دفاتر مهمة، ٣، ١٢٨ .

٢٣ – نفس المصدر، ٢٧، ص٨١ .

كان دخل البحرين حسب تقديرات حاكم الاحساء ٤٠,٠٠٠ فلوري (وكان فلوري هو الاسم العثماني للعملة الذهبية المستخدمة في أوروبا وكانت تساوي ٤٥ أسبر في ١٤٦٨م و٥٠ أسبر في ١٥٦٨م) .

٢٤ – دفاتر مهمة، ٢٧، ص٧٦ .

٢٥ – نفس المصدر، ٣، ص١٦٦ .

٢٦ – نفس المصدر، ٣٠، ص٣٥٣ .

٢٧ – نفس المصدر، ص٤٨١ .

٢٨ – المتحف البريطاني (لندن)، ٢٠٨٦١/١١٧ف .